المدرسة الوصفية المنطقية الحديثة

ممثلة في جون لوك، دايفيد هيوم

رواد المذهب الحسي والمذهب التجريبي

بعد أن كانت الفلسفة نظريةً وحواراً حول ما وراء الميتافيزيقيا وقدم العالم إجابة عن أسئلة كثيرة كانت تطرح نفسها على الفلاسفة تحولت إلى منهج علمي واعٍ ومنظم قام على أسس تجريبية.

فالحواس والتجربة هي سبيل المعرفة التي تمثل مبدأ المنفعة البراغماتية وهي المنطلق لهذا العلم لإنهاء فكرة الحق الإلهي المقدس للملوك. وإزاء هذه النظرية في بريطانيا توجد نزعة أفلاطون في الفلسفة ويمثلها الفلاسفة الذين قالوا بأن المعرفة فطرية أي حاسة فطرية تميز الخير من الشر، وهوبز من الفلاسفة البريطانيين الماديين فهو ينكر الروح ويعتبر الإنسان حيواناً متوحشاً تسوده الأنانية أي أنه مادي في تفكيره السياسي.

ولد جون لوك سنة 1632م بمدينته ريختون بإنجلترا وتوفي سنة 1704م، وهو فيلسوف إنجليزي نادى بالحرية السياسية والحرية الفكرية، حرية العقل في بحث الموضوعات المختلفة، والحرية الدينية ووضع نظرية المعرفة في الفلسفة الإنكليزية وتحليلها.

ألف كتاب مقالة في العقل البشري ضمنه نظريته في المعرفة فكانت الغاية من الكتاب البحث في طبيعة العقل وماهيته والبحث في قدرته ووظيفته، أي اكتساب الأفكار وأن العقل هو السبيل لتوحيد المعرفة الصحيحة، وتوجد أفكار فطرية في العقل البشري كالإيمان لإله طريقه في العقل ويشترك فيه كل البشر، وإنّ العقل البشري مجرد يدرك بوعيه بعض المبادئ والأفكار.

ويقول لوك: إنّ المعرفة مكتسبة وليست فطرية.

وإنّ كثيراً من الناس لا يقرون بهذه الأفكار الفطرية – وبعضهم لا يعتقد بها وإنّ مبدأ عدم التناقض لا تسلم به كل الناس.

وإنّ فكرة الألوهية أنها فطرية قال عنها لوك: إن هذه الفكرة تختلف باختلاف الشعوب وهذا يستدل أنها مكتسبة من البيئة والتجربة.

وتكون التجربة قائمة عن طريق الحواس إضافة إلى التفكير الداخلي أو التأمل الباطني.

وإنّ لوك يختلف عن الحسيين بالتجربة الحسية فيقول بالتجربة الداخلية إذ قسم الأفكار إلى أفكار بسيطة مصدرها الإحساس والتفكير الداخلي وأفكار مركبة مصدرها نشاط العقل.

فكرة اللانهائي:

ناقش فكرة اللانهائي جميع الفلاسفة وقد استنتج ديكارت وجود الله فقال: إنها فكرة فطرية الكمال اللامتناهي وهو الذي وُضِعَ في ذهني ولذا هو لا متناهٍ ألا وهو الله.

وقال لوك: إنّ التجربة الخارجية هي التي أوجدت هذه الفكرة عن طريق تأليف العقل بين الأفكار البسيطة لا عن طريق الإحساسات، ويعدّ الفكرة فطرية ويعتبر المعرفة مكتسبة.

فإن المذهب الحسّي هو جمع بين الحس والعقل ولهذا اختلف مذهبه عن المذهب الحسي الذي يردّ المعارف إلى الإحساسات فقط، فكان مذهبه وسطاً بين المذهب الحسي والمذهب العقلي، فلم ينكر وجود النفس واعتبر الفكرة عنصر المعرفة ورمزاً يمثل الواقع. والحقيقة أن له الفضل الأكبر في إظهار طريق

التأمل الباطني، وهو ما يثبت خطأ نظرية أرسطو... وإن نظريته في السياسة إنكار الحق الإلهي للملوك وإن نشأة الدولة عنده نتيجة عقد اجتماعي بين الناس.

وأما دافيد هيوم فإنه أنكر في نظريته أن الأفكار فطرية وقال هي مكتسبة لأن وجود الفكرة من حيث الأصل لا بد من أن يسبقها إحساس. فالمذهب الحسي ينكر عمل العقل في تكوين الأفكار وفي ربطها. ويختلف هيوم عن لوك وذلك أن هيوم يتابع مذهبه الحسي ويقرر أنه لا أثر للعقل. ولم يعرف هيوم بإلحاده إلا أنه كان شكاكاً وذاعت شهرته بأنه زنديق ووصف بذلك في كتاب رسالة في الطبيعة الإنسانية. وقال: إن أفكارنا كلها مستمدة من التجربة، فلا الحس ولا العقل ينتجان اعتقادنا في الأشياء المادية بل ينشأ عن الخيال.

وإنّ الإدراكات الحسية تتصل بعضها ببعض لعلاقات التتالي والتماثل والصلة وليست هناك أية رابطة واقعية بينهما.

المشكلة الأخلاقية عند هيوم:

قال: لا شيء يؤثر في العقل الإرادي غير اللذة والألم، وإنّ العقل وحده هو الحكم في التمييز بين الخير والشر الأخلاقيين فيبطل قول من قال: إن العقل وحده الذي يستطيع أن يؤثر على السلوك لأن الأحكام والأخلاق أيضاً تؤثر في السلوك أحياناً.

ولا يستطيع المجتمع أن يتماسك بدون التزامات العدالة ومن العسير أن نقول إن هيوم قد نجح في إرساء الأسس لعلم تجريبي عن الطبيعة الإنسانية.

فالعقل سببٌ في تكوين الأفكار البسيطة بل في ربط بعضها مع بعض وفي تكوين سيرها لأنّ الرابط بين الأفكار يكون بطريقة آلية صرفة تبعاً لقانون

تداعي المعاني، وقانون التشابه وقانون التلازم الزماني والمكاني (تجاوز زماني ـ تجاوز مكاني)، وقانون العلية. إلا أن هذا الأخير ليس قانوناً عقلياً.. بل هو نتيجة للعادة ولتحليل الحوادث مفككة في الكون ولا توجد ضرورة منطقية تحتم ثبات الشك في العلم وفي صحة قوانينه.

نتائج فلسفة هيوم:

1 ـ الشك في وجود العلم.

2 ـ الشك في وجود العالم الخارجي وإنكار المادة لأن العالم الخارجي وهم باطل لعدم وجود القدرة على إثباته.

3 ـ الشك في وجود النفس وإنكار العقل، وذلك لأن الإحساسات والأفكار يحدث تجمعها وترابطها بطريق آلي فتنتج عنها القوة التي تجمع بين الأفكار وتؤلفها وتربطها ببعض.

4 ـ الشك في وجود الله لأن فلسفته تؤدي بنا إلى إنكار قدرتنا على إثبات وجود الله بالبراهين العقلية، ولأن قولنا بوجود الله يقتضي أن نبحث عن علة وجوده، وإن علة وجوده تستلزم إثبات الوجود عن طريق البراهين العقلية وهو يؤدي بدوره إلى إشكالات عديدة مما يوجب علينا الاعتقاد بوجوده عن طريق غير عقلي وهو طريق الإيمان وطريق العاطفة والقلب على اعتبار أنّ المعتقدات الدينية تبنى عليها لا على العقل.

أما بيكون المشهور بفيلسوف التجربة فيقول: إنّ العلم لا ينهض ولا يتقدم إلا بالتجربة، وهناك قوانين وضعها الله في العالم يسير بموجبها الكون كله وهو مخالف لما قاله ديمقرطيس من أن الكون يسير بطريق الصدفة آلياً..

ويقول هيوم: إن الجوهر والديمومة واللانهاية لا يمكن أن يفسر بها وجهة النظر التجريبية المتطرفة.

وقد عمل برجون في دراسته العلمية للعالم الخارجي مستعيناً بالتحليل والتصنيف وهو يقول بالحدس على اعتبار أنه مقدمة للميتافيزيقيا. ويعد الأخلاق المشكلة المركزية في نظرية المعرفة الحديثة وهي التوفيق بين الطبيعة الذاتية للفكر وبين دعوانا بأننا نعرف ما هو خارج أفكارنا.

وللبيروني مذهب تجريبي في المعرفة خلاصته: أن العلم اليقيني يجيء عن إحساسات يؤلف بينها العقل على نمو منطقي.

obeikandl.com